

التأثيرات العربية الإسلامية في أدب خوان غوتيفولو⁽¹⁾

يونس شنوان*

تاريخ القبول 2024/03/14

DOI: <https://doi.org/10.47017/33.2.2>

تاريخ الاستلام 2023/11/15

الملخص

خوان غوتيفولو مثال للمتقف الحر المستنير المنفتح على الثقافات الأخرى إلى جانب ثقافته الإسبانية، وبخاصة الثقافة العربية الإسلامية، ويهدف هذا البحث إلى تتبع هذه التأثيرات التي يُعبر عن تأثره بها صراحة، وقد يبني مؤلفه كاملاً على فكرة عربية إسلامية. وقد ظهر تأثره بالتصوف الإسلامي في كثير من أعماله، وقد تتبعت ذلك في بعض مؤلفاته بالإسبانية وفي بعض ما ترجم إلى العربية. أما الوجود العربي الإسلامي في الأندلس فقد أظهر المؤلف أنه لعب دوراً أساسياً في تشكيل الهوية الإسبانية، وكان خوان مدافعاً عن القضايا الإنسانية نصيراً للضعفاء والمظلومين في العالم، ومثال ذلك روايته "حصار الحصارات" ومافعله الصرب من جرائم في البوسنة والهرسك. وكانت نصرته للقضية الفلسطينية في مواجهة العدو الصهيوني قولاً وعملاً من أبرز مواقف الإنسانية.

الكلمات المفتاحية: التأثيرات العربية الإسلامية، خوان غوتيفولو، التصوف الإسلامي.

المقدمة

استمر الوجود الغربي الإسلامي على أرض شبه الجزيرة الإيبيرية ثمانية قرون، منذ الفتح الإسلامي 92هـ/711م حتى نهاية عام 897هـ/1492م، حين استولى الملكان الكاثوليكان فرناندو وإيزابيلا على غرناطة آخر معقل من معاقل المسلمين في الأندلس، ولا يعني سقوط الأندلس نهاية الوجود العربي هناك، فقد استمر وجود المسلمين بأعداد كبيرة تحت حكم النصارى حتى عام 1610م، وقد عرف هؤلاء بالمدجنين والموريسكيين، وهم ورثة الحضارة الإسلامية في تلك الديار.

ومنذ أن طرد المسلمون من الأندلس، أصبح هم الأسبان والبرتغاليين طمس كل معالم الحضارة الإسلامية الأندلسية، والتنكر لتراثها الثقافي، علماً أن القطيعة بين إسبانيا وماضيها العربي كما يقول محمود مكي (Mekki, 1999, p. 6) ما كان لها أن تستمر إلى ما لا نهاية، فقد أخذت موجات التعصب التي قادتها الكنيسة ومحاكم التفتيش سيئة السمعة بالإنحسار، وشرعت رياح التنوير التي عمت القارة الأوروبية بالهبوب على إسبانيا والبرتغال، فقد بدأ مجموعة من المفكرين المتحررين يدعون إلى إعادة النظر في تاريخ بلادهم على نحو أكثر تجرداً وانصافاً، ومن هنا بدأ الإهتمام بالأندلس وإحياء تراثها. ثمة خصوصية للدرس الاستشراقي الإسباني لا ينبغي تجاهلها، وذلك من جهة اختلافه عن غيره من أنماط الاستشراق الفرنسي أو الإنجليزي أو الألماني، إنه استشراق في المكون الحضاري الإسباني، لم يتطلع معظمه إلى الشرق باعتباره عالماً مجهولاً أو غامضاً، بل نظر إليه بوصفه مكوناً للشخصية الإسبانية التي ظلت عربية إسلامية في مرجعياتها الحضارية إلى حدود القرن الخامس عشر. من هنا أتى تصريح بدرو منتابث بأفضليته تسمية الاستعراب على الاستشراق في المدرسة الإسبانية.

يقول Montavez الذي رحل في العام 2023م عن العالم: "إن إسبانيا ما كان لها أن تدخل التاريخ الحضاري لولا القرون الثمانية التي عاشتها في ظل الإسلام، وكانت باعثة للنور والثقافة إلى الأقطار الأوروبية المجاورة التي كانت آنذاك في ظلمة الجهل والامية والتخلف"، لذلك يقول منتابث: "إنني أفضل أندلس الحوار على أندلس الحنين" (Fawzy, 2020).

أما فديريكو كورينتي Corriente (توفي في 16 يونيو 2020) فقد اتهم في خطاب انضمامه للأكاديمية الملكية الإسبانية الغرب بعدم السعي لفهم العالم العربي، مما يعني جداراً من التنافر والكراهية، وقال: "إن الجهل الإرادي للغة وثقافة تشكل جزءاً من التاريخ الإسباني، محذراً أن العداء الأيديولوجي والديني يهدد غنى الهوية الوطنية، ويحد من تنوعها،

ويحرمها من روافدها"، لقد كان كورينتي Corriente من المستعربين الذين عملوا على تخليص الأسبان من عقدة الثأر التاريخي من الماضي العربي وتحسسهم بتملك تراث أصيل لكيانهم الوطني، لغة وثقافة ونمط عيش وهذه هي الرؤيا التي يصدر عنها خوان غوتيسولو موضوع هذا البحث (Shenwan, 2016).

منذ منتصف القرن الثامن عشر حدث تحول كبير في العقلية الإسبانية التي يبدو أنها استفاقت من صدمتي الصراع مع الإسلام سياسياً ودينياً، وذلك حين وجدت إسبانيا نفسها في مأزق حقيقي أمام المد التنويري الغربي، فلم تجد أمامها مناًصاً من العودة إلى إرثها الحضاري لتعيد النظر فيه بطريقة مغايرة، وذلك بوصفه مكوناً حضارياً عريقاً تبلور على الأرض الإيبيرية، وألقى بإشعاعه على الغرب، في وقت كانت فيه أوروبا تغط في ظلام دامس.

خوان بيرنيت Vernet الأستاذ بجامعة برشلونة؛ في كتابه "تاريخ الثقافة الإسبانية العربية في الشرق والغرب"، يبيّن توجهه على أن يلتفت الإسبان إلى ماضيهم الحضاري الأندلسي بعد تخلفهم عن التقدم الغربي، ويركز على فضل هذه الحضارة الأندلسية على الغرب، فقد قامت بدورها الحضاري الفاعل الذي نقل الحضارة وطورها إلى أوروبا اللاتينية والعكس (Vernet, 1978).

شهد القرن الثامن عشر الميلادي عودة إسبانيا لمصالحة ذاتها حضارياً، ولكن هذه العودة لم تكن متساوقة مع بعضها، بمعنى أنها كانت عودة وفقاً لاتجاهات محددة ومتناقضة أحياناً، وإن كان يمكن أن نلخصهما في اتجاهين:

الأول: يعلن القطيعة بين إسبانيا المسيحية وإسبانيا العربية الإسلامية المحتلة على شاكلة ما قدمه كلاوديو سانثيث البورنوث Claudio Sanchez Albornoz، الذي اعتبر الصدام الحقيقي غير تفاعلي، بل هو صدام مواجهته وخصوصيته لكل من إسبانيا المسيحية في الشمال وإسبانيا الإسلامية في الجنوب. يقول خوان غوتيسولو ناقداً ومفنداً لرؤية البورنوث: بعد أن يستعرض طائفة من مواقف المستعربين المعادية للتأثير العربي الإسلامي: "إلا أن قصب السبق في معاداة العرب يذهب، بلا شك، إلى سانثيث البورنوث، إن مؤرخنا المتشبع على نحو ولا أوضح بالقراءات الاستشراقية، وأفكارها المثبتة على شبقية "السراي" وتهتكه، كان يعتبر أن استعادة إسبانيا من المسلمين كانت في الواقع مهمة أوعز بها الله إلى الملوك الكاثوليكيين حتى ينقذوها من الفساد والتحلل اللذين ينجمان بطبيعة الحال عن الاحتكاك بالكفرة" (Goytisolo, 1997, p.157).

أما الاتجاه الآخر فيميل إلى حدوث حوار حضاري تفاعلي، كما يرى أمريكو كاسترو Americo Castro. يرى كاسترو أنه لفهم حضارة ما ينبغي الدخول إلى أعماق تاريخها وليس خارجها، إذ لا يعد الأحداث تاريخاً، ولكن مؤشرات للتاريخ وإرهاصات له، ومن هذه الفكرة يقارب تاريخ إسبانيا المسيحية في ظل الوجود العربي الإسلامي، ويرى أن هذا التاريخ اتصف بالسعي الملحمي البطولي، وبعدم الاهتمام بالفكر، ويرى كاسترو أن الفترة التي تميزت فيها إسبانيا عن إيطاليا وفرنسا هي فترة الوجود الإسلامي فيها، وقبل ذلك لم يكن لإسبانيا الرومانية متمثلة بمملكة القوط أي طابع إسباني خاص. وكانت هذه النقطة المركزية في كتابه "حضارة الإسلام في إسبانيا" الذي ترجمه سليمان العطار (1983). وفي الفصل الثاني من كتاب أمريكو كاسترو: إسلام شبه الجزيرة الإيبيرية يتحدث فيه بداية عن دور إسباني في ظل مملكة القوط الغربية، ويراه دوراً روماني الطابع، غير متميز، ثم يرى أن إسبانيا انفصلت عن تاريخ أوروبا بوصول المسلمين وسيطرتهم مدة ثمانية قرون، وإثر ذلك الوصول بدأت المقاومة المسيحية، ويقول إن ذلك كان نتيجة عجز النظام الإسلامي عن تكريس منظومة تساعد على تعايش شعوب مختلفة ضمنه، لكنه كان الثقل الحضاري الوحيد الذي تميز بأدب رفيع لا نظير له في أوروبا كلها (Castro, 2002).

وأرى أن كاسترو جانبه الصواب في موضوع التعايش، إذ المشهور في التاريخ تعايش أهل الديانات السماوية في الأندلس، كما يرى ول درايفل ديورانت (Durant, 1992)؛ إذ لم يعرف التاريخ مثلاً كما حدث في الأندلس من حيث تعايش الديانات.

وقد أعجب خوان غوتيسولو بهذا الطرح وجعله منطلقاً يعتمد عليه في بعض دراساته، يقول غوتيسولو في كتابه (Goytisolo, 1997, p.154): "خلفاً لمختصي التراثين اللاتيني والجرماني من الإسبان، الذين يتميزون بالمحافظة

وبالإصرار على ترسيخ التصور الخيالي لإسبانيا غير متعرضة إلا لتأثير مؤقت وعابر للإسلام، يؤكد مستعربو القرن التاسع عشر على خصوصية الثقافة الإسبانية بالقياس إلى بقية الثقافات الأوروبية، وعلى التأثير الحاسم الذي مارسه عليها المسلمون العرب، واليهود. مع هذا، فحين يحاول هؤلاء المستعربون تقييم هذا التأثير، فأنت ترى أنهم عاجزون عن التحرر من الأحكام المسبقة المتوارثة، التي ترى في هذا التأثير سبب تأخرنا وانحطاطنا الحاليين. إنك تنظر إلى الخطاب الذي يحمل ماضيها الإسلامي مسؤولية تخلفنا عن ركاب باقي البلدان الأوروبية، تنظر إليه وهو يرتسم في كتاباتهم ضمنياً ويتراءى بين السطور. فبدلاً من دراسة النتائج الفاجعة لسياق التوحيد الديني والثقافي القسري للإسبان، الذي بدأ ولم ينقطع، منذ نهاية القرن الخامس عشر، وهذا ما قام به مفكر كأمريكو كاسترو، لا يضع مستعربونا موضع الشك، في أية لحظة المعتقدات التي تستند إليها الوحدة الإسبانية الخادعة".

يرى خوان غوتيسولو أن طرد المسلمين من إسبانيا نتج عنه القضاء على الطبقة الوسطى الإسبانية التي كانت عماد الإنتاج في المجتمع لعقود (Goytisolo, 1979).

وأشاد خوان بالتفسير الذي قدمه أمريكو كاسترو في تأخر إسبانيا بسبب عدم احترام التعدد الذي كان قائماً زمن الحكم الإسلامي في الأندلس (Goytisolo, 1979).

يشيد خوان غوتيسولو في كتابه "في الاستشراق الإسباني" بجهود بدرو مارتينيث مونتاتب Pedro Martinez Montabez في التعريف بالنهضة الثقافية والاجتماعية والسياسية المعاصرة للعرب. "إن الإنتاج الأدبي المتنوع والجدير، غالباً، بالثمين، الذي يزدهر اليوم في البلاد العربية، ونضال أقطار المغرب القريب العهد للتحرر من الاستعمار، والمأساة التي يعيشها الشعب الفلسطيني..." كل ذلك جدير بالاهتمام (Goytisolo, 1997, p.156).⁽²⁾

وكان مونتاتب قد تحدث عن مرجعيات الاستشراق الإسباني في مقابلة أجرتها معه مجلة "الموقف الأدبي" فقد أكد أن ثمة حقيقة لا يختلف عليها المشهد الاستشراقي الإسباني اليوم، وهي أن هناك تراثاً عظيماً في إسبانيا هو مصدر فخر ينبغي دراسته وتعريف الإسبان به، وكذلك تعريف أوروبا به، لتعرف أن إسبانيا في يوم من الأيام كانت مصدر إشعاع حضاري في وقت كانت فيه أوروبا في غياهب الجهل والتخلف، لكن الاتفاق سرعان ما يتحول إلى موقف متردد وغير واضح حين يتم التطرق إلى مرجعيات هذا الإرث الحضاري، فهل هو عربي؟ أم إسباني؟ أم كليهما؟ هنا يحدد مونتاتب موقفه المثير للجدل حقاً حين يعترف بأن معظم الدارسين الإسبان يميلون إلى تثبيت الشراكة الحضارية بين المكونات الديموغرافية في تشكيل هذا الإرث، أي الإمساك بالعصا من المنتصف، لكنه يصرح بما هو أخطر ألا وهو أن الإسبان في قرارة أنفسهم يميلون إلى أسبنة هذه الحضارة سواء صرحوا بذلك أم لم يصرحوا.

جانب آخر توقف عنده مونتاتب، لا يقل أهمية عن سابقة، ألا وهو أن الحقيقة الحضارية للوجود العربي الإسلامي مازالت في حلقة ضيقة بين الأكاديميين الإسبان، وأن عامة الناس لا يعرفون الكثير عن ثقافة إسبانيا العربية الإسلامية باستثناء الحضارة العمرانية، ويمضي إلى ما هو أبعد من ذلك حين يبين صدمة الإسبان من الأدب الحديث المترجم من العربية إلى الإسبانية، ففي رأي عامة الشعب أن اللغة العربية لغة ميتة ومندثرة، وغير مستعملة اليوم.⁽³⁾

التأثير العربي الإسلامي في نماذج من بعض مؤلفات خوان غوتيسولو.

هذا باب واسع أردت أن أختار بعض التأثيرات الواضحة للثقافة العربية الإسلامية في مؤلفات الكاتب؛ وفي بعض المواطن يصرح خوان نفسه بهذه التأثيرات. ففي روايته "فضائل الطائر الوحيد" Las virtudes del Pajaro Solitario (Goytisolo, 1988) وعلى الغلاف الخارجي للرواية صورة طائر مشكّلة من الآية الكريمة: "بسم الله الرحمن الرحيم". وفي الصفحة السابقة على بداية الرواية يورد بيت شعر بالإسبانية على هذا النحو:

En la interior bodega

de mi Amado bebi

والبيت لسان خوان دي لا كروث

SAN JUAN DE LA CRUZ

من مجموعته: Cantico espiritual (الغناء الروحي)، ومعنى البيت بالعربية:

في داخل الحانة

من ريق محبوبي شربت

ويتبعه بيت لابن الفارض مشهور:

شربنا على ذكر الحبيب مدامة سكرنا بها من قبل أن تخلق الكرم

ويترجم ذلك إلى الإسبانية، ويعيد ذكر بيت ابن الفارض وبيت سان خوان دي لا كروث، شارحاً وموضحاً في الصفحة 132 من الرواية نفسها.

وفي باب الشكر يصرخ خوان غوتيسولو بعناوين المصادر التي أفاد منها، ويذكر فيها: "منطق الطير" لفريد الدين العطار، وديوان ابن الفارض (Goytisolo, 1988, p. 138).

وكان المؤلف قد أشار إلى ابن سيدة المرسي ووقفته الذكية عند الألفاظ التي تحمل دلالات متضادة (Goytisolo, 1988, p. 7-8).

في الباب الأخير من الرواية الذي خصصه المؤلف لاجتماع الطيور بدا تأثيره الواضح بالموضوع نفسه عند فريد الدين العطار في "منطق الطير". وقد رأيت أن أخص الاجتماعيين، الأول الذي اعتمدت في تلخيصه على النص الإسباني من ص 135-137. ابتداءً الطيور عند المتصوفة مخلوقات أرضية سماوية، يتوسل بها المتصوف للنقلة من عالم الأرض إلى عالم السماء أو العوالم الغربية المجهولة. يقول المؤلف عن "اجتماع الطيور": "طائرة قلقة خفيفة قفزت قفزة عمياء غامضة في المجهول، وبطريقة غريبة، قطعت آلاف الأميال للالتقاء بأشباها، في حظيرة الطيور الجميلة، برك ومراجيح ومشارب وأصص فخار معلقة، عليها نباتات متسلقة، ونباتات استوائية، وجذوع أشجار منسقة كثيرة، وبرك فيها حصي اصطناعي، ومقاعد متقنة الصنع، مصنوعة من الرمل".

هل كنت مدعوة من معلمي السابق؟ هل كنت مدعوة من وكالة عامة لحضور هذا الإجماع؟

وأسوأ من ذلك، ربما، وقعت بغباء، مثل أخريات منجذبة لصفير صياد محتال؟ مثل هذا الطاووس المقنع والمحشور في عش ضيق لسنوات عدة، خسر بسبب الظلم والهوان رداءه ووعيه، وحتى ذكريات جماله الجوهري، وروعة الحديقة التي كان فيها.

ورغم ذلك فقد بدا منفعلًا بروائح الورود، ونغمات الطيور المتعددة. لقد حركته الرغبة والشوق إلى البحث عن الحقيقة الضائعة المنسية، وفجأة انفلت من الحجب التي تقيده وتحيط به، واندفع إلى رواع الحديقة وألوانها الزاهية. متطلعًا إلى الانبعاث من جديد إلى حياة شفافة، بمظهر جديد أكثر حرية. أجنحته مثل محركات للرفع والدفع في الجو، معززه بأجهزة مناسبة رائعة، تجعل الأجنحة مثالية في فعاليتها يساعدها ذيل يفوق كل تقدير، بوظائف متنوعة، للمحافظة على التوازن والاتجاهات. ويستمر المؤلف في وصف بعض طيور البغاء والدوري، وطيرانها فوق المنحدرات السبعة ووصولها إلى القمة حيث يتسدد الطائر السماوي ويظهر في هذه الأثناء استاذ العربية، ولعله يقصد بذلك فريد الدين العطار صاحب كتاب "منطق الطير".

أما "منطق الطير" فملخصها⁽⁴⁾: أنها منظومة رمزية تبلغ 4500 بيت، موضوعها هو بحث الطيور عن الطائر المعروف بسيمورغ، والطيور هنا تشير إلى السالكين من أهل التصوف في البحث عن الموجود واجب الوجود. وأما السيمورغ فترمز إلى الله.

في رواية "JUAN SIN TIERA" أي "خوان بلا أرض" (Goytisolo, 1994)، تعد هذه الرواية تتمة لروايتين سابقتين، هما:

"Senas de identidad"، أي "علامة هوية" ورواية "Reivindicación del" Conde Don Julian "مطالبات الكونت خليان" (Goytisolo, 1994, p. 3).

يختم خوان غوتيسولو روايته Juan Sin Tiera بقوله: "في المستقبل ربما تكتبُ بلغة ثانية" (Goytisolo, 1994, p. 178)، كتاباته، في الأصل بالإسبانية، ولكن الإحساس بالغربة انتقل إلى اللغة نفسها، وخوان يورد أحياناً كلمات وعبارات بغير لغته الإسبانية، فقد يورد مفردات عربية بحروف لاتينية، وآيات كاملة بهذه الحروف. وقد كتب في بعض مؤلفاته عبارات باللهجة المغربية كان قد تعلمها أثناء إقامته الطويلة في مراكش، يكتب في هذه الرواية عبارات بالحروف اللاتينية، على هذا النحو (Goytisolo, 1994, p. 178):

Lugha alarabya eli tebda tudrus chuya b- chuya, lugha saiba bissaf

وهي بالمغربية: "هذه اللغة العربية التي تبدأ تدرس شوية شوية لغة صعبة بالزاف".

ويختم روايته بسورة: قل يا أيها الكافرون كاملة مكتوبة بالحروف اللاتينية (Goytisolo, 1994, p.p. 178-179). وعلى آخر صفحة في الرواية يكتب بخط يده عبارات باللهجة المغربية على النحو الآتي (Goytisolo, 1994, p. 180):

الناس الي مابفهمونيش مابقاوش يتبعوني علاقتنا انتهت

أنا بدون شك في الجهة الأخرى مع المساكين لي دائماً يوجدوا مساكين

وكان خوان غوتيسولو في البحث عن هوية يستحضر أبيات الشاعر الإشبيلي الإسباني (Machado, 1994) الذي يقول:

Yo soy como las gentes

A mi tierra vinieron

Soy de la raza Mora

Vieja amiga del Sol

que todo lo ganaron

Y to do lo Perdieron

وترجمتها:

أنا مثل أولئك الذين جاءوا إلى بلادي

أنا من سلالة عربية إسلامية.

تلك السلالة القديمة

صديقة الشمس

سلالة كسبت كل شيء

وخسرت كل شيء

أما روايته La Cuarentera التي نشرها خوان غوتيسولو عام 1991 وترجمتها إلى العربية عبير محمد عبد الحافظ، نشر المركز القومي للترجمة العدد 2510 عام 2014، فقد ظهر التأثير العربي جلياً واضحاً، وبخاصة أثر التصوف الإسلامي على وجه التحديد. كانت الشعلة الأولى لميلاد هذا النص قد انبثقت من نص عثر عليه غوتيسولو في كتاب

"الفتوحات المكية" لابن عربي، وقد شكل النص إطاراً للرواية ينتقل فيه المؤلف من عالم الدنيا إلى عالم الآخرة. يصرح الكاتب في مقدمة الرواية بأسماء المصادر التي ألهمته هذه الرحلة إلى ذلك العالم الغرائبي المجهول، فيقول: اعتدنا [الكاتب وصديقه] أن نهمل معاً من كتب ابن عربي، وميجيل أسين بلاثيوس Miguel Asin Palacios ونصوص متعددة تحكي قصة "الإسراء والمعراج" للنبي، والقصائد الصوفية، وكتاب "المرشد الروحي مولينوس Molinos". شكلت الإشارات المرجعية للصوفي أبي العباس المرسى، المعلم الأكبر، وخاتم الأولياء إلى عين الخيال والمملكة الوسيطة، التي تحضر فيها الأرواح حين تخرج من قبورها، النواة الأولى لعمل فرض وجوده في نفسي بشكل قاطع، حين قرأت السطور التي سألتوها: "حين تطير الأرواح إلى العالم الوسيط أو البرزخ، تواصل الحضور في أجسادها، وتصير هذه إلى صورة ناعمة مثل التي يرى المرء نفسه عليها في الأحلام، فالعالم الآخر ماهو إلا مقرّ تتبدل فيه الأشكال على الدوام..." (Goytisolo, 1991, pp. 15-). (16).

لقد كان لعلم التصوف النصيب الأوفر في هذا النص الإبداعي، وبخاصة ابن عربي وأفكاره بحضورها المكثف في ثنايا هذا النص، بل إنما الرؤى التي انطلق منها الكاتب في رسم خطوط روايته حيث يقول: "استيقظت، نظرت إلى مشهد الفراغ الشاسع، بدا المشهد كأن من يشهد الفيلم قد أوقفه برغبته الشخصية، أو بناءً على أمر من رئيسه، حين ظهر ابن عربي، وعرفته على الفور لحسنه الفريد الذي يشع منه، حاملاً مخطوطه وعنوانه: "رسالة في شجرة الإنسان، والطيور الأربعة" دعاها لكي تتبعه، وأراها عارية، على أهبة الاستعداد، خفيفة نشيطة، خلدت إلى النوم مجدداً، وسمعتها تهمس في أحلامها: شربت ميراث الكمال الناصع" (Goytisolo, 1991, p. 37).

ويشير غوتيسولو في "الأربعينية" في غير ما موضع إلى "معراج" ابن عربي، وهو الذي ألهم دانتى مشاهد في "الكوميديا الإلهية" حيث يقول غوتيسولو: "ألم يستلهم الفنان الفلورنسي، بجرأة، رؤى داخلية مستوحاة من كتاب "المعراج" في أثناء تأليفه كتاب "الكوميديا الإلهية؟" (Goytisolo, 1991, p. 43).

وفي رواية خوان غوتيسولو "حصار الحصارات" (2001)، ظهر تأثر المؤلف بهول ما رأى في سراييفو أثناء إقامته فيها، ومشاهدة ما فعله الصرب من مجازر، وكأن ما رآه عاد به في ذكرائه إلى مصرع أمه السيدة "خوليا كاي" التي قتلت في أحد شوارع برشلونة أثناء الحرب الأهلية، فكان محرك الإبداع عنده هو إحساسه بتجربة العجز الأولى وهو بعمر 7 سنوات، وهو العجز نفسه الذي مكن Juan Goytisolo من إبداع روايته "حصار الحصارات"، وهي مبنية على عدد من الحصارات والألغاز المتتالية، تنتهي جميعها عند صوت واحد يضم الجميع، إنه صوت الصوفي.

إن تأثر خوان غوتيسولو على الصعيد الشخصي بالفكر الصوفي كان واضحاً في النص، لدرجة أنه بعد أن جمع كل الحصارات، بما فيها من سياسية، ومحو ثقافة، وطبقية، وعنصرية، جعلها لا شيء أمام الحصار الأعظم، حصار الدنيا للجسد، وحصار الجسد للروح، ليصير مشهد الموت الذي بدأت به الرواية، الحل بعد أن كان اللغز.

بين خوان غوتيسولو وإدوارد سعيد

كتب خوان غوتيسولو دراسة عن إدوارد سعيد عنوانها: "إدوارد سعيد مثقف حر" (Goytisolo, 2004). يقول في مقدمتها: "تعرفت إلى إدوارد سعيد في مدينة نيويورك سنة 1972 يوم كنت أستاذاً زائراً في جامعة نيويورك. كان يدرس في جامعة كولومبيا، حيث كان يحتل كرسي الأدب المقارن. كان ناقدًا أدبيًا من طراز استثنائي، وبعد أعوام قليلة تحول مؤلفه "الاستشراق" إلى مرجع لجميع الدراسات المتعلقة بالعالم العربي خاصة، وبالعالم الإسلامي عامة. كان بمثابة ثورة دكت الأسس التي قامت عليها الدراسات الغربية وأطروحات المستشرقين. فلقد بين بوضوح أن عدداً كثيراً من هؤلاء المستشرقين سخر علمه، لا في سبيل الشعوب التي انكب على دراسة تاريخها وثقافتها وتقاليدها، وإنما لخدمة السلطات الامبراطورية في البلاد الأوروبية، ولاسيما في فرنسا وإنكلترا. كان لقراءته تأثير قوي في، وفي النصوص التي ضمنتها كتابي: "حوليات العرب المسلمين Croniques Sarracinas"، حيث اعتمدت مع كتاب "الاستشراق الإسباني" الذي لم يكن يعرفه منهجاً مشابهاً له. حافظاً من ذلك الحين على صداقة قريبة".

في جانب مظلم من هذا العالم استطاع عدد من كبار مثقفي العالم، أن يصلوا إلى العالمية، من خلال ما اتسمت بهنتاجاتهم الثقافية من مصداقية وإنصاف للآخر الضعيف المسلوب من أبسط حقوقه، وأن يناووا بأنفسهم بعيداً عن متهات الانصياع للآخر القوي ومواجهته على الرغم من قساوة الظروف المتمثلة في أغلبها في ظروف التهجير والنفي إلى خارج الوطن. إلا أن هذه الظروف قد جعلت منهم وبجدهم واجتهادهم وإفادتهم من أبسط المعطيات الممكنة أناساً لهم حضورهم العالمي، أمثال ادوارد سعيد العربي الفلسطيني الأمريكي، الذي ألف كتاب "الاستشراق" وقدم فيه رؤية تبصيرية لما يلف العالم والإنسانية من ظلام واستبداد سببه قوى مهيمنة، توجه أبسط الإنتاجات الثقافية توجيهاً يخدم مصالحها التي لا تستند إلى شرعية حقيقية.

هذه الرؤية النقدية التي قدمها إدوارد سعيد لم تكن جائزة بل كانت منصفة حتى لأشد أعدائه الذين سلبوا وطنه وكانوا سبباً في نفيه خارج هذا الوطن، رؤية توضح للعالم بكل حياد، متطلعة لتقديم الأفضل للعالم، وتدعو إلى التحرر من القيود المفروضة على المثقف. هذا المثقف الذي بدوره لا بد أن يقبل نقد الذات، وأن يقبل الآخر ويطلع على ما ينتج معرفته. لقد شكل إدوارد سعيد ظاهرة عالمية على المستويات كافة من ثقافية وفكرية حاملة بالأفضل حيث انتصار الضعيف، أو على الأقل تساويه مع الآخر المستبد السالب لحقوقه. استطاع ادوارد سعيد من خلال مصداقيته أن يؤثر في الاستشراق العالمي على الرغم من الجهود التي بذلت لإخماد هذا التأثير ومنعه عالمياً. إلا أن فئة من مثقفي الإنسانية تلقفوا وجهات نظر ادوارد بإجلال واحترام، ومن هؤلاء الإسباني خوان غوتيسولو.

لقد مثل غوتيسولو صوت المثقف الحر، من خلال تناوله لجملة من القضايا العالمية والإنسانية، كالاهتمام بالقضية الفلسطينية، ورفضه لطغيان الإحتلال الصهيوني. وهو يشارك إدوارد سعيد في انتقاد المنهج الذي اتبعه المستشرقون في دراسة الشرق وعدّه أسلوباً غريباً للهيمنة على الشرق والتسلط عليه. والحق أن المقارنة بين الاستشراق "لإدوارد سعيد" والاستشراق الإسباني "لخوان غوتيسولو" لا يقوم لها بحث واحد، وإنما هي موضوع يستحق مجموعة أبحاث لتتبع القواسم المشتركة عند الكاتبين.

الخاتمة

تتبع البحث بعض التأثيرات العربية الإسلامية في أدب خوان غوتيسولو، ومثل عليها بما يوضحها، سواء فيما ترجم إلى العربية أو ما لم يترجم. ووضح البحث أن بعض مؤلفاته مثل روايته "الأربعينية" أساسها رؤى المتصوفة المسلمين، وأكد البحث على مواقفه الإنسانية الثابتة في نصرة المظلومين، وظهر أن من الملامح المميزة لكتابات خوان غوتيسولو النزعة الإنسانية واحترام التعدد وثقافات الآخرين في تنوعها واختلافها. وقد ساعدته إقامته الطويلة في بلد عربي (مراكش) في الشطر الأخير من حياته في فهم الثقافة العربية الإسلامية بعمق، حتى وإن لم ينجح في إتقان العربية، وقد أظهرت استشهادات باللغة العربية، وما كتبه بخط يده باللهجة المغربية، وما كتبه بالحروف اللاتينية من القرآن الكريم عن إحساسه بالمنفى الذي اختاره، ووجدت هويته فيه.

Arab-Islamic Influences in the Literature of Juan Goytisolo

Younes Shanwan, Department of Arabic Language and Literature, Yarmouk University, Irbid, Jordan.

Abstract

Juan Goytisolo is an example of a free and enlightened intellectual, who is open to other cultures besides his Spanish culture, especially the Arab-Islamic culture, and this research aims to trace these influences that he expresses his explicit influence, and his entire author may be based on an Arab-Islamic idea. His influence on Islamic mysticism has appeared in many of his works, and this may be reflected in some of his works in Spanish and in some of his translations into Arabic. As for the Arab-Islamic presence in Andalusia, the author shows that he played a fundamental role in shaping Spanish identity; Juan was a defender of humanitarian issues and a champion of the weak and oppressed in the world, an example of which is his novel "The Siege of Sieges" and the crimes committed by the Serbs in Bosnia and Herzegovina. His support of the Palestinian cause in the face of the Zionist enemy in word and deed was one of his most prominent humanitarian stances.

Keywords: Juan Goytisolo, Islamic mysticism, Arab-Islamic influence.

الهوامش

1- Juan Vuan Goytisolo: "Las virtudes del pajarito solitario, Editor digital: Tititulos e Pub base r I.2, 1988, PP 139-140.

ولد خوان غويتسلو في برشلونة 1931 في عائلة برجوازية، وأصل باسكي قطلاني. قتلت أمه في الحرب الأهلية الإسبانية. وكان والده موالياً لفرانكو. وقد أثرت هذه النشأة الصعبة في الميول الأدبية لخوان ولأشقائه وإن اختلفت بهم السبل. في عام 1956 رحل خوان إلى باريس وتزوج من Monique وكانت صديقة ل Jean Genet الذي تأثر به خوان كثيراً، منذ 1996 اتخذ من مراكش المغربية محلاً لإقامته.

عاش في الولايات المتحدة ما بين 1969-1975، حيث عمل أستاذاً للأدب الإسباني في جامعات كاليفورنيا وبوسطن ونيويورك. كتب الرواية والقصة والدراسات النقدية والتاريخية. اشتهر في أدب الرحلات والسيرة، وعمل خوان غويتسلو في الصحافة، وكان مراسلاً لجريدة El Pais أوسع الجرائد انتشاراً وذلك في الشيشان والبوسنة. حصل على جائزة دون كيخوته وهي أشهر الجوائز في إسبانيا. ودافع عن الثقافة العربية وعن دورها في التقريب بين الأمم، وفي مقابلة في الجزيرة عبر عن حزنه لعدم معرفته العربية (الرملي، محس، مدريد، 2010/12/19). نشر غويتسلو أكثر من أربعين كتاباً في موضوعات مختلفة إلى جانب كونه صحفياً. توفي في مراكش 2017.

2- انظر: الملحق الثقافي لجريدة "العلم" المغربية، عدد 722، تاريخ 1984/12/15، تأملات في الاستعراب الإسباني/ خوان غوتيسولو.

3- انظر: الاستجواب الذي أجرته مجلة "الموقف الأدبي" السورية، عدد 122، ص 96-97.

4- تبدأ المنظومة بحمد الله والصلاة على رسول الله، ومدح الخلفاء الراشدين الأربعة. والجزء المتعلق بالحكاية نفسها يبدأ بالبيت 500، وهو يشتمل على خمسة وأربعين مقالاً، وتبدأ القصة بتوجيه الخطاب والترحيب بثلاثة عشر طائراً، ينعقد بهم المجلس، فيقررون أنه لا بد لهم من أن يخضعوا أنفسهم لواحدٍ منهم يجعلونه مرشداً لهم أثناء بحثهم عن السيمورغ حتى يوفقوا إلى العثور عليه، ثم يختارون الهدهد في مخاطبتهم بحديث طويل. ويتضح أن العنوان "منطق الطير" مأخوذ من قصة النبي سليمان في قوله تعالى: "يا أيها الناس علمنا منطق الطير وأوتينا من كل شيء إن هذا لهو الفصل المبين" النمل:16.

المصادر والمراجع

- ديورانت، ول درائيل، قصة الحضارة، بيروت، 1992.
- شنوان، يونس: المستشرق الإسباني فديريكو كوريتي، جهوده الأدبية. "التراث اللغوي والأدبي والنقدي العربي في الآداب العالمية"، دار جرير، ط 2016 ص ص 1935-1961.
- غويتصلو، في الإستشراق الإسباني.
- فوزي، شاك، متوسط التوجه، 2020.
- كاسترو، حضارة الإسلام، ترجمة سليمان العطار.
- محمود مكي، 1991، ص6.

List of References:

- Castro, Americo. (2002). *The Civilization of Islam in Spain*, translated by Suleiman Al-Attar.
- Durant, Will Drael. (1992). *The Story of Civilization*, Beirut.
- Fawzy. Shaker. (2020). *Medio oriente*.
- Goytisolo, Juan. (1979). *Espana y los Espanales*, Tomo 1, Editor digital: Don Gato, Espasa E Book.
- Goytisolo, Juan. (1988). *Las virtudes del Pajaro Solitario*, Editor digital: Titivillus e Pub base r 1.2.
- Goytisolo, Juan. (1991). *La cuarentena*, Al-arbaciniya.
- Goytisolo, Juan. (1994). *Litertura Random House*. Collecction: Literatura Mondadori 19. Genrerado con: Quality E book. Uo-70.
- Goytisolo, Juan. (1997). *on Spanish Orientalism*.
- Goytisolo, Juan. (2004). *Edward Said es un intelectual libre*, Revue d'e'studes Palestinienns, no.90, hive.
- Machado, Manuel. (1994). *Antologia' Poe'tica*, Biblioteca Edaf, Espaná, Madrid.
- Mekki, Mahmoud. (1999). *Tres estudios sobre la poesía andaluza*.
- Shenwan, Younis. (2016). *The Spanish Orientalist Federico Coretti, his literary efforts*, "The Arab Linguistic, Literary and Critical Heritage in World Literature", Jarir Publishing House edition.
- Vernet, Juan. (1978). "La cultura arabe En Oriente Yoccidinte", ed: Arie, , pp7-10.